من مذكرات عمر بن أبي ربيعة

صديق إبليس

للأستاذ محمد محمد شاكر

« قال عمر بن أبي ربيعة » :

« لم أزل أرى كاتم (هي بنت سعد المخزومية زوجة عمر) أجزلَ النساء رأياً وأصلبهن مَكسراً، وأقواهنَّ على فيرة قلبها سلطاناً، حتى إذا كان منذ أيام رأيتُ امرأة قد استلأنَ ضعفها، وتهتَّك عنها جَلَدُها، وعادت أنثى العقل يُغْويها الذي يغريها.

« وإن أنسَ لا أنسَ يوم احتلتُ عليها حتى دخلت إليها، وقد تهيأت لي أجلَ هيئة وزينت نفسها ومجلسها، وجلست من وراء الستر، فلما سلمتُ وجلستُ، تركتني حتى سكنت، ثم رفعت الستر عن جمال وجه يخطف الأبصارَ، ثم رمت في وجهي تقول: أخبرني عنك أيها الفاسق! ألست القائل كذا وكذا؟ تعني أبياتاً لي، فما زلتُ أفتِلُ في الذِّرْوَة والغارب، وهي تَنِدُّ عليَّ وأنا مقيم عندها شهراً لا يدري أهلي أين أنا، ولا أدري ما فعل الله بهم. ولا والله ما مرَّ عليَّ يوم إلا حسبتها امرأة قد خلقتْ بغير قلب، لما ألقاه من عنادها وامتناعها، وإني لآتيها بالسحر بعد السحر من حديث تحنُّ عليه الموانس المتعصمات في مَرَابِعِ الزمن، وأنا يومئذ شاب تتفجرُ العُنْبوة من لساني، ويتلألأ الغزلُ في عينيَّ، وهي يومئذ غادة غريرة لو نازعها النسيم، فيما أرى، لاستقادتْ له من دَلِّها ولينها وغضاوة العيش. ولبثت شهراً أقول وأحتال وأستنزلُ عُصْمها برُقى السحر، حتى إذا قلت قد دانتْ، انفلتت مصعِّدة قد تركتني شاخصاً أنظر إلى صيد قد طار، ثم أطرق ناظراً إلى سحر قد بطل. فلما اشتد ذلك عليَّ استأذنتها في الخروج إلى أهلي، وقد يئست منها ومن هواها، فما سمعت حتى قالت: « عِينَ الله أيها الفاسق! بعد أن فضحتني؟ لا والله لا تخرج أبداً حتى تتزوجني! » فتزوجتها وهي أحبُّ النساء إلى أن أتزوَّج، وما زلتُ معها وأنا لا أنكرُ منها شيئاً، وأقول الشعر تأخذه الألسن لتشيعه

كان لوالدي تسعة إخوة وكان يحبهم جميعا حبا قلبيا صادقا حتى لقد كان يذهلني عندما يموت أحدهم أن أراه رهو الشيخ الكتوم لسره يبكي بدمع حار، وكان أصغر إخوته رجلا كريما متلافا، وكان والدي يهتز في دخيلة نفسه لكرمه وإن أحزنه إتلافه لماله، ولقد هدد هذا الإتلاف ثروته حتى أوشكت أن تضيع، وكان والدي يحرص على أن يستنقذ من تلك الثروة مايستطيع؛ وحدث ذات يوم أن ألح الدائنون بالمطالبة وكان الوالد يستطيع عند ئذ أن يحكمهم ببعض ماله الخاص ولقد فعل، وكنت عند ئذ في السابعة عشرة من عمري وكانت والدتي كعادة الأمهات تحرص على أن يستبقي الوالد أمواله لأبنائه، وكان أخي الأكبر بناصرها في الرأي فانتحى بي والدي في الليل ناحية وأسر لي بنيته طالبا إلي أن أخفي الأمر عن والدتي وأخي. ولقد رأيت في هذه الحركة ثقة بي برغم حداثة سني أثرت في نفسي أبلغ الأثر، فتحمست منذ ذلك اليوم لعمل الخير وآمنت أنه جزء من الإيمان حتى استقر بي الرأي إلى أن عون الملهوف وإسداء المعروف إلى الناس لا بد أن يخلفه الله بالخير على صاحبه، ولا زلت حتى اليوم أعتقد أن بركة الله قد حلت بمال والدي منذ ذلك الحين. وذلك لأنه مال لم يطهره بالزكاة فحسب، بل زكاه بالإحسان.

هذه هي عناصر الإيمان في نفسي، اطمئنان إلى المجهول، وعدم تطاول بالعقل إلا مالا يستطيعه، وربط للأخلاق بالإيمان، وتسامح مع الناس، وعمل للمعروف حيث نستطيعه. وأما منابع ذلك الإيمان فهي كما ترى لم تكن محاجة عقلية ولا إثارة عاطفية، ولكنها حوادث صغيرة كانت أبلغ في تمرسه بالنفس من كبار الموسوعات وطوال الخطب

محمد مصدور
المحامي

إلى الآذان ، وأدخل بيتي فألقاها فلا أسمعُ منها قلتَ وقلتَ ! فيكرُ بني إغفالُها لما يبلغها من الشعر ، فألحُّ على النسيب ، وأذهب كل مذهب في التشبيب ، وأتبعُ النساء بعينيّ وقلبي ، وأقولُ ، فلا والله ما نَبَضَ لها قلب ولا تحركت لها جارحة ، ولقد أدخل عليها فإذا هي تلقاني ضاحكة لاهية ، حتى أقول : لعلها لم تسمعْ ! فأنادي مولاي وأملي عليه ، وهي بحيث تسمعُ ما أملي ، وأتخلل الإملاء بالشكوى والحنين وأرفع بهما صوتي ، ثم أنهضُ ألقاها فما أرى وجهها يزيدُ أو يتمعّر ، فكان ذلك غيظي وشقوتي ، لا تزيدُها الأيام إلا انقياداً . ويلمّه كيلاً بغير ثمن ! كم ذا أغيرُها فلا تغارُ !

وأقبلتُ ذلك اليوم ، بعد مرجعي من الكوفة بشهر أو أكثر ، فاستقبلني جُوان (هو ولد عمر من كلثم) فقال : « يا أبَهْ . أي ، ما فعلت بها ؟ » . قلت : « أمك ! بخير يا بُنيّ وعداها السوء » . قال : « كلاَّ يا أبَهْ ، وما أدري ما بها ، غير أني ظللتُ أياماً أستخبرها ، وهي خالية ، عما يريبها أو يؤذيها ، فلا أسمعُ منها إلا ما تنشده من شعرك

كُنَّا كَمِثْلِ الخمْرِ كان مِزَاجُها
بالمـــاء ، لا رَنْقٌ ولا تكديرُ
فإذا وذلك كان ظلَّ سَحَابَةٍ
نَفَحَتْ به في المُعْصراتِ دَبُورُ

« ثم تنظر إليّ وتقول : يا جُوان ، امضِ لشأنك ، ولا تَنسَني في صلاتك ، فوربّ هذه البنيّة ، لقد حملتُك ووضعتُك وأنا أدعو الله أن يُجنّبني الشيطانَ ، وأن يجنّبَ الشيطانَ مايرزُقني ، فكنتَ أنتَ يا بُنيّ دَعوتي ، فادعُ ربَّك ياجُوان لأمك التي حملتك رهناً على وَهن .

فابكِ ماشئتَ على ما انقضى كلُّ وَصْلٍ مُنْقَضٍ ذاهبُ
لو يردُّ الدمعُ شيئاً ، لقد ردَّ شيئاً دمعُك الساكبُ

فأقول : « يا أماه لقد أفزعتني ! » فتقول : « اذهبْ يا بُنيّ « لو تُرِكَ القَطا ليلاً لنامْ » . ثم تشيحُ وتنصرفُ ، ولا والله ما قدرتُ منها على أكثر من أن أسألها فتجيبني بمثل ما أخبرتُك . فبالله ، يا أبَهْ ، لا تدع أمي تموتُ بحسرة تتساقط عليها نَفْسُها ! ارحمها يرحمك الله .

ويذهبُ جُوان ويدعُني لما بي ، ويأخذني ما حَدُثَ وما قَدُمَ ، وكيف ولم أنكرْ منك يا كلثمُ شيئاً منذ رجعت من غيبتي بالكوفة ؟ وإني لأدخلُ عليها فتداعبني وتضحكُ لي وتذهبُ بي في لهوها مذاهبَ ، ولا والله إنْ وقعتُ منها على مساءة تضمرها أو همّ تكتمه ، وكأن الحياة قد منعتْ دونها غيرَ النفس فهي لا تتغير . وهذا جُوان يقول ، فإن صَدَقَ لقد كذبتني عيناي وكذبَ عليّ قلبي ، وإن كلثم لتلهو بي وتتلعّبُ وأنا في غفلة من كُبرْ شأنها وأساها ! وأذهب من ساعتي أدورُ في الدار أنظر ، فإذا كلُّ شيء أراه قد لبس من همّ نفسي غلالة سوداء نشأت بيني وبينه ، وإذا أيامنا الماضي قد بُعثتْ في أشكال هلاهيل تطوف متضائلة في جنبات البيت وهي تنظرُ إليّ نظرة الذليل المطرَّد المنبوذ ، وإذا كلثم قد خرجت إليهن كالبؤة الجريحة تنفذُ في أذنيّ من حيثما اصغيتُ ، وما هو إلا أن أراني في فراشي قد تو كأتُ على مرفقي ، والنشيةُ التي أخذتني تتقشعُ عني شيئاً بعد شيء . وبعد لأي ما ذكرت ما كان من حديث جُوان كما كان ، فنهضت من مكاني أطلب كلثم في غرفتها حيث هي من البيت .

وقصدت مقصورتها فإذا هي قد أجافت الباب ، فذهبتُ أفتحه وإنّ يدي لتأبى عليّ أن تمتد خشية أن أطلع منها على ما يسوءني ، وهي أحبُّ إليّ من أن أراها مغمومة أو مكروبة ، على غير ما عودتني وعودتها . فاستأذنتها من ورائه فقالت : « مهلاً يا أبا الخطاب ، وبخير ما جئت » . فقلت لنفسي : « كذب والله جُوان وما كان كاذباً » . فلما فتحتْ لي الباب رأيتُ سُنة وجه كالسيف الصقيل يبرق شباباً ورضى ، وقالت : « مرحباً بك يا عمر ، لو رأيت الساعة جاريتي وهي تدخلُ عليّ ساعية تجري تقول : سيدتي أدْرِكي مولاي فقد سمعت الناس يتناشدون من شعر قاله اليوم ، وإذا فيه

ليس حُبٌّ فوق ما أحببتُها غير أن أقتل نفسي أو أُجَنْ

فاحفظيه يا سيدتي من روعة المصيبتين . فقلت لها : لقد وقى مولاك السوء أن ليس بينه وبين الناس إلا لسانه ! ولا يقتل مولاك نفسه أو يجنّ حتى يقتل الحمام نفسه على هديله أو يجنّ . »

لم أدر ما أقول ، فقد كانت كلمات جوان قد تشبّحت لعيني ودوّت في أذني ، فما أطقت صبراً أن أسألها : «ما يقول جوان؟ زعم أنك لا تزالين مهمومة لأمر يستخبرك عنه فلا تخبرينه ، ولقد مضت السنون بيني وبينك ، ولا والله ما علمت إلا خيراً ولا رأيت إلا خيراً ، وما قال إلا ما يجعلني آسى على ما كان مني إليك مما ساءك أو رابك» . وما كدت أتمّ حتى رأيتها تنتفض كالرشأ المذعور أفزعته النبأة ، وبرقت فتخاذلت وغرق صوتها فما تنطق ، فخاصرتها ومشيت بها إلى مجلس في البيت وجلست أتحنّى بها حتى تهدأ . وبعد قليل ما قالت : «أما إذا كان هذا يا أبا الخطاب فوالله إنْ كتمتُك شيئاً» .

ثم أطرقت ساعة ، وأنا أنفذها ببصري أطلب غيب ضميرها ، ثم رفعت إليّ بصرها ونظرت نظرة المرتاب ثم قالت «إني محدّثتك يا أبا الخطاب عما كان كيف كان . هذه جاريتي ظمياء تدخل عليّ كالمجنونة منذ أيام تقول : «سيدتي ، يمين الله أن تكتمي عليّ ما أقول» فأقول : «أمنت يا ظمياء! ما يروعك؟» فتقول : «لا والله ما يروعني إلا أن أدع مولاتي توصم بين نساء قريش وبني مخزوم ، ويتحدث أهل مكة أن أم جوان قد لقيت من البلاء كذا وكذا» . فأقول : «ويحك يا ظمياء! انظري ما تقولين!» . فتقول : «لا والله إنْ هو إلا الحقّ ، أرأيت إلى تلك البيضاء الصهباء ذات العينين التي ما زالت تجيئني منذ أيام ، لقد قالت لي في عرض حديثها : يا ظمياء لقد جئت مكة من بلادٍ بعيدة ، وإني لأسمع الناس على الطريق يذكرونها ويذكرون بيت الله الحرام ، فما ازددت إلا شوقاً أن أرى بيت الله الحرام ، وأن أرى الناس يجاورون هذا البيت العتيق ، وما وقع في قلبي إلا أن أرى دنيا لم أرها ، وقوماً كتب الله لهم أن يكونوا أطهر وأتقى الناس لله . ولقد خرجتُ من بلادي وهي أبغضُ إليّ لما أرى من فجور أهلها وانقماسهم في كل إثم وباطل ، وكنت أرى أشد أهلنا فجوراً ولجاجاً أولئك الشعراء . ثم دخلت بلادكم وطوّفت فيها ما طوّفت حتى إذا انتهيت إلى أرضكم هذه ، لم أزل أعرف الشعراء فيكم أفجرَ وأفسق وأضلّ» .

«فما أطقت أن أصبر يا مولاتي حتى قلت : «مَهْ يا صهباء ، وكذبتِ . وأين بنو الأصفر من بني يعرب؟ فإن شاعر العرب ليقول ، وإن قلبه لأطهر من أن يدنسه ما يدنس به شعراؤكم أنفسهم يا بني الأصفر . وهذا مولاي وهو أغزل العرب لسانا ، وما علم أحد عليه سوءاً . قالت صهباء : ما أحسن ما رباك أهلك يا ظمياء! وأحسنى ما شئت ظنك في مولاك قلت : تبّا لك . وإنك لتريغين إلى مولاي منذ اليوم ، فلا والله لقد كذبتِ وخسئت أيتها الصهباء الطارئة التي لا مولى لها . فقالت صهباء : كذبتُ وخسئتُ! ما أصدق ما قال مواليك «من دخل ظفار حمّر» ! وإنك لغريرة يا ظمياء ، وأنا الصهباء الطارئة من بنات الأصفر لأخبر منك بغيب مولاك عمر . قلتُ : كيف قلتِ ؟ قالت : إنه الحق ، وإن لمولاك غيباً عميت عنه عينك وعين مولاتك ، وهو أحرص عليه من أن يطلع على خبئه أحد قلت وأنّى لك أيتها الغريبة؟ قالت : دعي عنك ، فهو الذي أحدثك .

«ثم دنت مني كالتي تسرّ إليّ وقالت : ما كذبتُك أيتها الحُلوة الغريرة ، فهذا مولاك قد ذهب إلى الكوفة منذ زمن ، ألم يكن ذلك؟ وهذا مولاك قد نزل بأفسق خلق الله وأخبثهم عبد الله بن هلال الحيري الذي يزعم أنه صديق إبليس وخدنه وصاحب سرّه ، وإذا هذا الفاجر يخرج إليه قينتين من أجمل خلق الله وأحسنه يغنيانه بشعره حتى ذهب عقله ، وإذا هو يدير مولاك يوما بعد يوم على أن يفتنّ بهما ، حتى إذا بلغ منه ما أراد ضمن له أن تكونا بالطائف بحيث لا تراهما عين بشر . لا تنظري إلي كالمرتابة ، فهذا الخبيث ابن هلال قد ألقى الطاعة إلى إبليس حتى عظم أمره عنده فهو يخدمه ويناطقه ، وحتى لقد ترك له صلاة العصر تقربا إليه ، وحتى أباحه إبليس أن يأمر الشياطين تتلعّب ببني آدم ، ومن شرطه عليه أن لا يزال أبداً يجمع بين الرجال والنساء في الحرام . وهو رجل كما يقول مولاي ...» قالت ظمياء : وإن لك لمولى يا صهباء؟ قالت صهباء : دعيني حتى أتمّ يا ظمياء .. هو رجل قد أوتي من القوة على السحر والقدرة على تلبيس أنظار الناس ما لم يجتمع لأحد من شياطين السحرة قبله ، فلو هوس وجه امرئ بمنديله الأزرق ذي الوشي لم تأخذه عينُ بشر . وهكذا هو يفعل بمولاك وصاحبتيه حتى لا يراهم الناس . قالت ظمياء : وإنّ هذا يكونُ ؟ ! قالت صهباء : نعم ! وليس في الأرض أحدٌ يطيق أن يدرأ شرّ هذا الشيطان الخبيث إلا مولاي . فقالت لها ظمياء : ولكن أنّى لمولاك يا صهباء أن يكونَ عرف الذي خبرتني به إن كان ما تقولين من